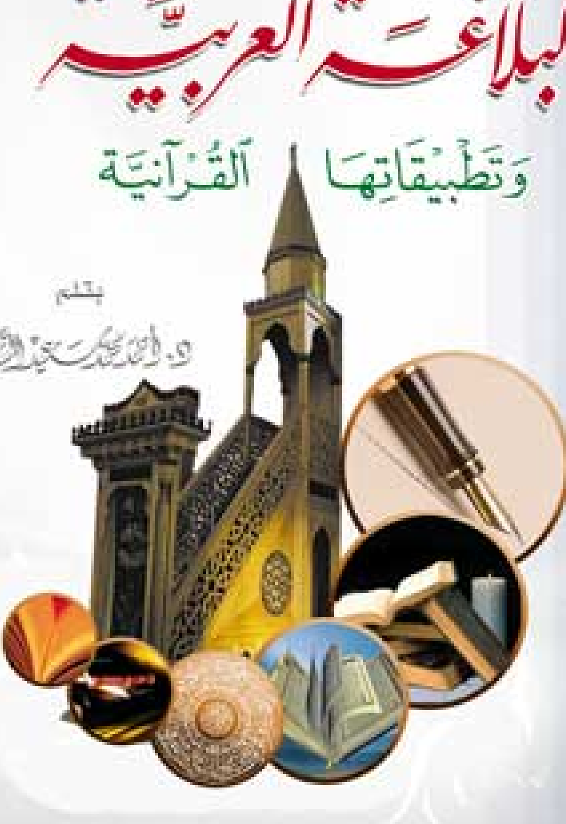
دار الرواد للنشر

الخلاصة في البلاغة العربية وتطبيقاتها القرآنية



بقلم
د. أحمد محمد سعيد [illegible]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسَّلام على أبلغ العربِ أجمعين، وعلى آله وأصحابِهِ فرسان البلاغة، وأرباب البيان المبين، وعلى من تبعهم واقتفى آثارهم في اللغة والدين، إلى يوم الدين.

وبعدُ:

فهذه خلاصةٌ في علوم البلاغة العربيَّة، كتبتها لطلبة العلم الشَّرعي، وحرصت فيها على إبراز أهمِّ مباحث البلاغة في علومها الثلاثة، المعاني والبيان والبديع، بإشاراتٍ سريعة تبرز أهمَّ ما يحتاجه الطالب في هذا المجال، مع الشَّواهِد القرآنيَّة المؤيِّدة والمبيِّنة، وبعض الأمثلة الشِّعريَّة، ليتذوَّق الطالب عن طريقها جمال لغته المعجزة، ويتدرَّب على استنباط المحاسن البلاغية من كلِّ كلامٍ عربيٍّ بليغ، ليكون ذلك معيناً له في فهم هذه اللغة، ونصوصها البليغة، وعلى رأسها كتاب العربيَّة المعجز.

وقد نقلت بعض النصوص القليلة من مصادر هذا العلم، بغية اطلاع القارِئ على نماذج من كلامهم في هذا الفن، ويتعلَّم أصولَ فهم عباراتهم، وقد كان الجرجاني رحمه الله المثال الأبرز والقدوة الأمثل، الذي يمثِّل هذا العلم في مرحلة صفائه وأصالته.

وإلى جانبِ ذلك، ولأنَّ الكتاب خلاصة مركَّزة، لم أرد أن أكثِرَ من تحليلات الشَّواهِد والأمثلة، لكن لم أخلِ الكتاب منها في الوقت نفسه، فقد حاولت أن لا يمرَّ موضوعٌ من مواضيع البلاغة المهمَّة، دون أن أعرض فيه نموذجاً للتحليل، ليضع أمام القارِئ طريقة التذوُّقِ والتحليل، بالإضافة إلى المادَّة النَّظريَّة.

وقد قدمت لمباحث البلاغة المعروضة بتمهيدٍ يتحدَّث عن أهميَّة دراسة البلاغة لطالِبِ العِلم الشَّرعي، مبرزاً ما ذكره بعض العلماء من أنَّه يلي علم التوحيد في الأهميَّة، والله أرجوأن أكون قد قدَّمت مادَّة مفيدة تمهِّد الطريق لدراسة المراجع الأساسيَّة في هذا الفن، والله الموفِّق، وهويهدي السبيل.

أحمد محمد سعيد السعدي

دمشق ١٤٣١ هـ

تمهيد
في أهمية دراسة البلاغة
لطالب العلم الشرعي

ذهب بعض العلماء إلى أنَّ الواضع الحقيقي لعلم البلاغة هوعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) في كتابيه: "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة"[١]. وإنما وضع عبد القاهر هذين الكتابين لبيان إعجاز كتاب الله عزَّ وجل، وأسراره الكامنة في إحكام نظمه وسلاسة بيانه، وهذا يعني أنَّ هذا العلم إنما وضع خدمة لكتاب الله عز وجل، وبيان عظمته ودلالته على صدق النبوة، ومن ثَمَّ ذهب بعض العلماء إلى أن مكانة علم البلاغة تلي مكانة علم التوحيد في الأهميَّة[٢].

قال الشيخ أحمد الهاشمي رحمه الله يذكر فائدة علم المعاني ـ وهوأهم علوم البلاغة ـ: "معرفة إعجاز القرآن الكريم، من جهة ما خصه الله به من جودة السبك، وحسن الوصف، وبراعة التراكيب، ولطف

(١) انظر ما نقله محمود شاكر عن الشيخ رشيد رضا في مقدمة كتاب الجرجاني " أسرار البلاغة "، ص ١٣.

(٢) قال أحمد الهاشمي رحمه الله: " واعلم أنَّ علوم البلاغة أجل العلوم الأدبية قدراً، وأرسخها أصلاً ....، فهي الغاية التي تنتهي إليها أفكار النظر، واللآلئ التي تتطلبها غاصة البحار؛ لهذا كانت منزلتها تلوالعلم بتوحيد الله تعالى . (جواهر البلاغة، ص ٧) .

الإيجاز.... إلى غير ذلك من محاسنه التي أقعدت العرب عن مناهضته، وحارت عقولهم أمام فصاحته وبلاغته "[١].

ولا شك أنَّ هذه العلاقة بين البلاغة العربية والدين، وارتباطها بالإعجاز القرآني ـ وهوأهم مصادر التشريع الإسلامي، وحجة صدق نبوة من جاء بهذا الدين ـ أعطى البلاغة العربية ـ على وجه الخصوص ـ مكانة مرموقة دفعت علماء العربية للتدقيق وبذل الجهد في تحري الصواب حتى حين يرتبط الأمر ببلاغة الشعر العربي؛ لأنَّ الحافز الديني يرقى بالباحث إلى ذروة الأمانة العلمية، وهذه ميزة يفتقدها الآخرون، مما حدا ببعض الباحثين للقول: "وكانت النقلة من الحديث عن إعجاز النص القرآني إلى بلاغة النص الشعري تمر بالجسر اللغوي نفسه، وربما تكون اللغة العربية ـ دون كثير ادعاء ـ هي اللغة الوحيدة بين لغات الأرض التي ارتبطت عندها الحاجة لضبط الدلالة على مستوى محور أوثنائية اللفظ والمعنى بواعز ديني"[٢].

إضافة لأهمية دراسة البلاغة في فهم إعجاز القرآن، وكونها علماً منضبطاً من علوم العربية بذل العلماء العرب فيه كل الجهد خدمة للغاية التي ذكرنا آنفاً، يشكل هذا العلم طرفاً من علوم العربية التي يجب أن يتقنها طالب العلم لفهم كلام الله وكلام رسوله، وعبارات

(١) المرجع السابق، ص ٤٠.
(٢) المرايا المقعرة، عبد العزيز حمودة، ص ٣٢٢.

السلف الصالح وكتب العلم الشرعي على مدى التاريخ الإسلامي؛ لأنَّ علوم الشرع، وانطلاقاً من الكتاب والسنة، دوِّنت جميعاً بهذه اللغة المعجزة، ولذا لم يكن غريباً أن يمتحن العلماءُ الطالبَ في علوم العربية ليعرفوا مكانه في علم الشرع(١). ذلك لأنَّ للغة مستويات: المستوى الصوتي، والمستوى التركيبي، والمستوى الدلالي، ولا يمكن إتقان فهم اللغة إلا بدراستها على المستويات الثلاثة، والبلاغة في صلب مستوى الدلالة، كما هي على علاقة بمستوى التركيب. ومكانة البلاغة ـ هذه ـ من اللغة، كانت سبباً دفع علماء الأصول لاشتراط العلم بها في مجتهد الشريعة، ضمناً كما فعل الشاطبي رحمه الله في الموافقات(٢)، أوتصريحاً كما فعل الشوكاني رحمه الله(٣)، ولعل أوضح عبارة في ذلك قول ابن بدران في كتابه "المدخل إلى مذهب أحمد": "إنه يشترط في حقه معرفة فني المعاني والبيان، ولا يخفى احتياج الناظر في الأحكام إليهما "(٤).

إذن فعلم البلاغة مهم لدارس الشريعة من جهات أهمها:

(١) انظر قصة تؤكد ذلك في كتابي " العلامة الشيخ صادق حبنكة الميداني، ص ٩٣ .
(٢) انظر ما ذكره رحمه الله من اشتراط جميع علوم العربية في المجتهد في كتابه الرائع " الموافقات "، ٤ / ٨٢ فما بعد .
(٣) إرشاد الفحول للشوكاني ص ٤٢٠ .
(٤) المدخل لابن بدران، ٣٧٣ .

١ ـ فهم أسرار إعجاز القرآن الكريم.

٢ـ فهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

٣ ـ فهم كتب السلف، وعلى رأسها كتب التفسير، وخاصة التفسير بالرأي، فتفاسير الزمخشري والبيضاوي وأبي السعود والنسفي والألوسي وابن حيان والخفاجي وغيرهم، كلها تولي الجانب البلاغي في القرآن أهمية كبرى في التفسير، وفهمها ـ أي التفاسير ـ متوقف على فهمها ـ البلاغة ـ.

٤ ـ القدرة على إقناع الناس بالحق، إذ علم البلاغةِ يُعلِّم الدارس كيفية اختيار الألفاظ وترتيبها على نحوٍ يكون أكثر تأثيراً في السَّامِعِ، ولذا نجد القرآن يوجِّه الدعاةَ ـ وعلى رأسهم النبي ﷺ ـ إلى الاعتماد على الكلام البليغ للتأثير في المعارضين، قال تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النِّساء: ٦٣] .

٥ ـ علم البلاغة العربية علم أصيل اعتمد على مصدر الثقافة العربية الصرفة، ولئن دخله من أساليب الآخرين ومصطلحاتهم، فهذا لا يعني أنه علم مكتسب من الآخرين، إذ الجهود تتكامل، فإذا كان علم البلاغة علماً عربياً خالصاً فأحرى بطالب العلم الشرعي أن يتعلمه ويعلمه إحياء لتراث الأمة وخدمة للغتها المعجزة.

تعريف البلاغة
وعلاقتها بالفصاحة

عرَّف الخطيب القزويني البلاغة بأنها: "مطابقة الكلام لمقتضى الحال، مع فصاحته ".

فالبلاغة لها شرطان: مناسبة الكلام للموقف الذي يقال فيه، والفصاحة.

الشرط الأول: التناسب بين الكلام والحال الذي يقال فيه: وهذا يعني وجود التوكيد عند الإنكار من المتلقي مثلاً، وعدم المبالغة في التوكيد إذا كان السامع غير منكر، ووجود أسلوب التفخيم والتهويل عند الحاجة إليه، وهكذا....، فإذا كان الإنسان يظن أن سعيه هومصدر رزقه، وكان لا يكاد يقبل في هذا نقاشاً، يأتي القرآن بمؤكدات كثيرة لإثبات أنَّ الرزق من عند الله واجتثاث الإنكار من جوف النفس البشرية، يقول تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝٢٣﴾ [الذاريات: ٢٢ـ٢٣] بالتوكيد بالجملة الاسمية والقسم وإنَّ واللام المزحلقة والتشبيه بما لا يقبل التشكيك بله النفي.

ومثل ذلك ما نجده من التفخيم في القرآن عند كون الأمر محتاجاً

لهذا التفخيم، فمن ذلك: أسلوب الإضمار ثم تفسير الضمير ليدل على التفخيم في المواضع التي تحتاج إليه، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الحج: ٤٦] ، وقوله: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [القَصَص: ٨٢] ، وذلك بدل أن يقال: فإنَّ الأبصار لا تعمى، وإن الكافرين لا يفلحون(١). ذلك أن مجيء الشيء مبهماً يشوِّق النفس للعثور على المعنى، فإذا فُسِّرَ كان أوقع في النفس، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يكون المُفَسَّرُ قد ذُكِرَ مرتين بالإجمال أولاً ثم بالتفصيل، فيكون ذلك أقوى في إثبات المعنى(٢).

الشرط الثاني: الفصاحة: وفصاحة الكلام يكون بفصاحة كلماته، وكونها غير متنافرة، نظمها مطابق للقواعد، بعيدة عن التعقيد.

١. فصاحة الكلمات: ويشترط لفصاحة الكلمة أن تخلومن ثلاثة عيوب: الغرابة، ومخالفة القياس، وعدم تنافر حروفها. فكلمة خندريس بمعنى الخمر ليست بفصيحة؛ لغرابتها، وكلمة الأجلل في قول الشاعر: الحمد لله العلي الأجلل، غير فصيحة لمخالفة القياس في وجوب الإدغام (الأجل)، وكذا كلمة اطلخم بمعنى اشتد في كلام أبي تمام: قد قلت لما اطلخم الأمر؛ لتنافر حروفها.

---

(١) ينظر: دلائل الإعجاز للجرجاني ص ١٠٢ .

(٢) ينظر: الجملة العربية والمعنى، السامرائي، ص ٢٧٦ .

٢. عدم تنافر الكلمات: فقول الشاعر: وليس قرب قبر حرب قبر: ليس فصيحاً، وبالتالي ليس بليغاً، وذلك لأن هناك تنافراً بين هذه الكلمات لما في اجتماعها من ثقل واضح.

٣. مطابقة النظم (ترتيب الكلمات بالجملة) للقواعد: ولذا جعلوا قول زهير

إن تلق يوماً على علاته هرماً
تلق السماحة منه والندى خلقا

من غير الفصيح؛ لمخالفة البيت للقاعدة النحوية الراجحة: لا يجوز عود الضمير (في قوله: علاته) على متأخر لفظاً ورتبة.

٤. البعد عن التعقيد: فغير فصيح قول الشاعر:

إلى ملك ما أمه من محارب
أبوه، ولا كانت كليب تصاهره

لأن ترتيب الكلمات يوقع في الخطأ في الفهم، إذ مراد الشاعر: إلى ملك أبوه ليست أمه (أم أبيه) من محارب.

مباحث علوم البلاغة

للبلاغة ثلاثة علوم: علم المعاني، علم البيان، علم البديع.

فعلم المعاني هوالعلم الذي يُعْرَفُ به أحوال الكلام العربي التي بها يطابق مقتضى الحال.

ومن هنا يدرس هذا العلم الإنشاء وأنواعه، والخبر وأضربه، بالإضافة للإيجاز والإطناب والمساواة، والقصر، والفصل والوصل.

والغرض من هذا العلم كشف أسرار الجمال في كتاب الله عز وجل، وإعجاز النظم في الجملة القرآنية من حيث التقديم والتأخير، أوالذكر والحذف، ونحوذلك[1].

أمَّا علم البيان فهوقواعد يُعرَفُ بها أداء المعنى بطرق متعددة تعتمد المباشرة، أوالتصوير في التعبير.

وعلم البيان وثيق الصلة بعلوم العربية، فإذا كان النحويبحث في المعاني الأصلية للكلام، وعلم المعاني يدرس ما وراء المعاني الأصلية من مقاصد، فإنَّ علم البيان يدرس الطرائق التصويرية لإظهار

(١) محاضرات في البلاغة، ص ٢٧ .

هذه المعاني، بشكل يجعلها أكثر تأثيراً في المتلقي[١]. ومن ثَمَّ يدرس هذا العلم: الحقيقة والمجاز، والتشبيه والاستعارة والكناية.

أمَّا علم البديع فهوعلمٌ بِطُرُقِ الاستفادة من طاقات الألفاظ، لتحسين التعبير، ورفع سوية الكلام لأداء المعنى المطلوب.

ويهتمُّ هذا العلم بمحسنات الكلام من جانب المضمون (المحسنات المعنوية)، ومن جهة الشكل (المحسنات اللفظية)[٢].

فمن المحسِّنات المعنوية: الطباق، حسن التخلص، التورية.

ومن المحسنات اللفظية: الجناس والسجع، التوشيح، رد العجز على الصدر.

وكان السَّكاكي رحمه الله قد قسم البلاغة إلى علمي البيان والمعاني، واستبعد موضوعات البديع بحجَّة أنَّ التحسين الذاتي للكلام يكون

(١) البلاغة العربية في فنونها، د. سلطاني، ص ١٠٢.
(٢) يرى أستاذنا الدكتور علي سلطاني أنَّ كلمة المحسنات توحي بأنها جاءت لتزيين الكلام بعد استيفاء المعنى، والذي يفترض في البليغ أن يؤدي المعنى بالوجوه البديعيَّة نفسها؛ ليكون التعبير أغنى وأعمق أثراً في النفوس. ومن ثَمَّ يرى تسميتها بوجوه الأداء (البلاغة العربية في فنونها، ص ٢١). ولعل الأولى المحافظة على المصطلح الشائع لأنَّ التحسين للبناء كما يكون بالإضافات على مواد البناء يكون بها، ووجوه الأداء تشمل المحسَّن وغيره، والله أعلم.

في المعاني والبيان، أمَّا وجوه البديع فالتحسين فيها تحسين عرضي، ولذا فهي ليست من البلاغة.

وهذا الرأي مجانبٌ للصواب؛ لأنَّ البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فإذا احتاج المقام للتحسينات البديعية كالطباق أوالجناس أونحوهما، كان ذلك في صلب البلاغة لخدمتِهِ لوظيفتِها في مطابقة الكلام للحال. وفي كتاب الله الكثير من الألوان البديعية، وهوالمقياس الأسمى للبلاغة، ومن هنا فإنَّ ألوان البديع إذا جاءت لخدمة المعنى والمقام فإنَّها بلا شك من البلاغة، وفي الصميم من علومها، ولا فرق بينها وبين موضوعات البيان أوموضوعات المعاني. وهذا ما أكَّده بدر الدين بن مالك حين ألَّف كتابه "المصباح في المعاني والبيان والبديع "، وأصبحت البلاغة من عهده ثلاثة علوم، واستمر ذلك ليومنا هذا[1].

❊ ❊ ❊

(١) محاضرات في البلاغة، ص ٢٦ .

علم المعاني

أصل هذا العلم ـ كما تقدم ـ نظرية النظم التي وضعها الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز "ليبرهن على أن إعجاز القرآن للعرب أن يأتوا بمثله كان في صياغته للمعاني بالطريقة المثلى التي تتوخَّى معاني النحو[1].

ولأهمية هذه النظرية سنعرض لمفهومها ومقاصدها على وجه الإجمال:

أولاً ـ نظرية النظم:

رأى الجرجاني رحمه الله أنَّ إعجاز القرآن إنما هوفي نظمه، وقال: ليس النظم شيئاً غير توخي معاني النحووأحكامه فيما بين الكلم، ويقصد بذلك ترتيب الكلام في الجملة، والتقديم والتأخير للفاعل والخبر ونحوذلك، وأساليب الكلام التي توصف في علم النحو بمصطلحاته كالصفة والشرط والتعريف والتنكير. بما يخدم تقديم المعنى على نَحْوٍ يُوْقِعُ في نفس المتلقي هذا المعنى مرتباً كما أريد، من خلال ترتيب الكلمات وفق علم النحو.

(١) البلاغة الواضحة، ص ١٨٤ .

يقول الجرجاني ﵀: "واعلم أنَّك إذا رجعت إلى نفسك علمت علماً لا يعترضه الشك أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب،حتى يعلق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك. هذا ما لا يجهله عاقل ولا يخفى على أحد من الناس.

وإذا كان كذلك، فَبِنَا أن ننظر إلى التعليق فيها والبناء، وجعلِ الواحدة منها بسبب من صاحبتها، ما معناه وما محصوله؟ وإذا نظرنا في ذلك، علمنا أن لا محصول لها غير أن تعمِد إلى اسم فتجعله فاعلاً لفعل أومفعولاً، أوتعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبراً عن الآخر، أوتتبع الاسم اسماً على أن يكون الثاني صفة للأول، أوتأكيداً له أوبدلاً منه، أوتجيء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون صفة أوحالاً أوتمييزاً، أوتتوخى في كلام هو لإثبات معنى، أن يصير نفياً أواستفهاماً أوتمنياً فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك، أوتريد في فعلين أن تجعل أحدهما شرطاً في الآخر فتجيء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى، أوبعد اسم من الأسماء التي ضمنت معنى هذا الحرف، وعلى هذا القياس.

وإذا كان لا يكون في الكلم نظم ولا ترتيب إلا بأن يصنع بها هذا الصنيع ونحوه، وكان ذلك كله مما لا يرجع منه إلى اللفظ شيء ومما لا يتصور أن يكون فيه ومن صفته، بان بذلك أن الأمر على ما

قلناه، من أن اللفظ تبع للمعنى في النظم، وأن الكلمة تترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس، وأنها لوخلت من معانيها حتى تتجرد أصواتاً وأصداء حروف، لما وقع في ضمير ولا هجس في خاطر، أن يجب فيها ترتيب ونظم، وأن يجعل لها أمكنة ومنازل، وأن يجب النطق بهذه قبل النطق بتلك. "[1]

وبهذا يبني الجرجاني نظريته على الاهتمام بالمعنى دون إهمال اللفظ ويجعل الإعجاز في ترتيب الكلمات على النحوالذي يؤدي فيه هذا الترتيب المعنى على أحسن وضع وقد مزج الجرجاني بين الكلام النظري والأمثلة التطبيقية لتكون نظريته مبرهنة بالأمثلة وموضحة على نحوٍ لا يعتريه شك أوغموض. ومن أشهر أمثلته ما عَلَّقَ به لبيان مفهوم النظم على الآية التي ختم بها ربنا تبارك وتعالى قصة طوفان نـــوح: ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هــود: ٤٤] قـــال ﵀: "ومعلومٌ أنَّ مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ثم أُمِرَت ثم في أن كان النداء بيا دون أي نحويا أيتها الأرض، ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال إبلعي الماء ثم أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هومن شأنها، نداءَ السماء وأمرها كذلك بما يخصها، ثم أن

(١) دلائل الإعجاز ٥٥ ـ ٥٦

قيل: وغيض الماء، فجاء الفعل على صيغة فُعِل الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى: وقُضِي الأمر، ثم ذكر ما هوفائدة هذه الأمور وهواستوت على الجودي، ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هوشرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن، ثم مقابلة قيل في الخاتمة بقيل في الفاتحة؟ أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملأك بالإعجاز روعة وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها، تعلقاً باللفظ من حيث هوصوت مسموع وحروف تتوالى في النطق؟ أم كلَّ ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتّساق العجيب؟ "(١)

وقد وجهت لنظرية النظم رغم قوتها عدة انتقادات أهمها:

الأولى: أنكر الدكتور بيومي إغفال عبد القادر لمكانة اللفظ، والمقطع، والفاصلة، وضرب على ذلك مثالاً من قول الله عز وجل: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا﴾ [المدثر: ١١ـ١٤] ثم قال حاول أن تقرأه على هذه الصورة: ذرني ومن خلقت وحيداً وجعلت له مالاً مبسوطاً وبنين حاضرين، ومهدت له تمهيداً ثم يطمع أن أكثر، فإنك إذا فعلت ذلك لم تخرج عن قضية النظم النحوي كما عناه عبد القاهر لكنك تُغْفِلُ أثر

(١) المصدر السابق ٤٥ ـ ٤٦

المقطع والفاصلة، فتهبط بالكلام من مستوى إلى مستوى... "

الثانية: يرى الدكتور البوطي أن الإعجاز ما ينبغي أن يفسر بترتيب الكلام لأن ذلك واقع في كلام العرب، وإنما وقع الإعجاز في أنَّ الكلام صفة المتكلم، ولذا يعجز العبد عن أن يتكلم بكلام الخالق، وضرب لذلك أمثلة منها قوله تعالى في سورة مريم: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٨ـ٧٢] فمثل هذا الكلام لا يستطيعه البشر ولذا نجد فرعون الذي يدعي الألوهية لا يستطيع أن يتكلم بغير كلام البشر حين يقول لوزيره: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ﴾ [غافر: ٣٦ـ٣٧].

❊ ❊ ❊

ثانياً ــ الإسناد:

الإسناد عند البلاغيين: ضمُّ كلمة لأخرى على وجهٍ يُفيد الحكم بإحداهما على الأخرى، ثبوتاً أونفياً.(١)

فالإسناد هوالحكم على شيء أوالإخبار عنه، وهومن خصائص الأسماء؛ لأنَّ الفعل لا يُتحدَّث عنه، وإنما يُخْبَرُ بِهِ.

ويمكن أن نقول: الإسناد هوعملية تركيب الكلام لإفادة المعنى، وهذا معنى قولهم: الإسناد مناط الفائدة، أي هوأصل الفائدة، وهي تترتب عليه، فعند ما نقول: دَرَسَ زيدٌ للامتحان، نجد أن هذه الجملة تتألف من كلمات رُبِطَ بعضها ببعض في ترتيب معين، هذا الربط مع الترتيب هوالإسناد، وهذا الإسناد قد حَقَّقَ فائدة هي الإخبار بدراسة زيد لأجل الامتحان.

وللإسناد ركنان محكوم عليه ومحكوم به.

فالمحكوم عليه يسمى مسنداً إليه، وهوفاعل أونائب فاعل أومبتدأ ونحوذلك من الأسماء.

---

(١) ينظر: جواهر البلاغة، ص ٤١ .

والمحكوم به هوالمسند، وهوالفعل أوالخبر ونحوهما.

وما تتم به الجملة وليس بركن فيها يسمى في البلاغة قيداً كالمفاعيل والتوابع ونحوذلك من الأسماء والحروف.

والإسناد على نوعين خبر وإنشاء.

فالخبر: كلام يحتمل الصدق والكذب لذاته.

ومعنى قولنا لذاته أي بقطع النظر عن خصوص المخبر أوخصوص الخبر.

فأخبار الله عز وجل كلها صادقة والبدهيات كذلك، وادعاء مسيلمة النبوة خبر كاذب لا يحتمل الصدق.

وهذا لا يعني أن هذه الأخبار لعلمنا بصدقها أوكذبها لا تكون أخباراً؛ لأن المقصود احتمال الخبر للصدق والكذب بالنظر لترتيبه وطبيعته، دون النظر إلى المخبر أوالواقع.

والإنشاء: كلام لا يحتمل صدقاً ولا كذباً لذاته.

وقولنا لذاته: أي بقطع النظر عما يستلزمه الإنشاء، فقولنا: اغفر يستلزم خبراً وهو: أنا طالِبٌ المغفرةَ منك.

١ ـ الخبر:

يهدف المخبر عادة من وراء خبره إلى أحد غرضين أساسيين:

الأول: فائدة الخبر أي إفادة المخاطب الحكم الذي يتضمنه الإسناد، كقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥] .

الثاني: لازم الفائدة أي إفادة المخاطب أنَّ المتكلمَ عالِمٌ بالحكم كقول المعلم للطالب: كنت غائباً بالأمس. ومن ذلك إجابة الطالب على ورقة الامتحان.

وقد يلقى الخبر لأغراض أخرى تُعْرَفُ من السياق وقرائن الأحوال وهي كثيرة كالمدح والفخر وإظهار التحسر والرثاء...

قال تعالى على لسان امرأة عمران: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦] فغرض الخبر هنا إظهار التحسُّر؛ لأن امرأة عمران كانت ترجوأن تلد ذكراً ليكون في خدمة بيت المقدس، فلما وضعت أنثى أظهرت تحسُّرَها بخيبة رجائها .

وقال المتنبي:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي
وأَسْمَعَت كلماتي مَنْ بِهِ صَمَمُ

الغرض من الخبر هنا الفخر.

وقال في سيف الدولة:

هوالبحر غُص فيه إذا كان ساكناً
على الدُّرِّ واحْذَرْهُ إذا كان مُزْبِدا

الغرض من الخبر هنا المدح.

وهكذا تتعدد الأغراض بحسب مقاصد المخبرين، وإنما تفهم من السياق وقرائن الأحوال.

والمخاطب إزاء ما يلقى إليه من أخبار أحد ثلاثة:

- خالي الذهن: ويُلقى إليه الخبر غير مؤكَّد.

ويسمى الخبر الموجه لخالي الذهن والذي لا يشتمل على المؤكِّدات: **الخبر الابتدائي**.

وأمثلته في القرآن كثيرة، حيث نجد الأحكام الفقهية فيه مسوقة بغير توكيد؛ لأن المتلقي أوالمخاطب خالي الذهن من هذه الأحكام قبل أن تساق إليه. وذلك كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البَقَرَة: ١٩٧].

- متردد أو شاك: ويلقى إليه الخبر بمؤكد واحد، ويسمى **الخبر الطلبيّ**، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النِّساء: ٥٨] .

• منكر: وينبغي أن يُؤَكَّدَ له الخبر بأكثر من مؤكد بحسب درجة الإنكار حيث تكثر عناصر التأكيد كلما اشتد الإنكار.

يسمى الخبر المُلقى للمنكر، والمؤكَّد بأكثر من مؤكد: **الخبر الإنكاري**، مثاله قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التّوبة: ١٠٧] ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢ـ٢٣].

وقد أوضح لنا بيان الله عز وجل كيف ينبغي ازدياد التوكيد مع زيادة الإنكار وذلك في سورة يس: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [يس: ١٣ـ١٧].

فنلاحظ أن الرسل بعد أن كذبوا جاء خبرهم عن الرسالة مؤكداً، لكن التأكيد زاد بشكل ملحوظ حين زاد الإنكار فنجد ما يشبه القسم ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ [يس: ١٦]، مع التأكيد بإن واللام المزحلقة ﴿لمرسلون﴾.

والمؤكِّدات كثيرة منها: القسم، إنّ، أنّ، لام الابتداء، نونا التوكيد، الحروف الزائدة، أما الشرطية، قد، التكرار، التوكيد

بألفاظ التوكيد المعنوي (نفسه، كلاهما...).

لكن الخبر قد يخرج عن مقتضى الظاهر فيؤكد الخبر لخالي الذهن ويترك توكيده لغيره، وذلك لعِللٍ بلاغيَّة.

أ ـ تنزيل خالي الذهن منزلة السائل المتردِّد:

وذلك كقوله تعالى مخاطباً سيدنا نوح عليه السَّلام: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ [هُود: ٣٧] فنوح عليه السلام كان خالي الذهن من الحكم الخاصِّ بالظالمين، وكان مقتضى الظاهِر أن يُلقى له الخبرُ غيرَ مؤكَّدٍ، لكِن لمَّا نُهيَ عليه السَّلامُ عن المخاطبة في شأنهم صار متطلِّعاً لما سيصيبهم: أهوإحراقٌ أم إغراقٌ أم غير ذلك نُزِّل منزلة السَّائل المتردِّد، وأُجيب بأنَّهم مغرقون.

ب ـ تنزيل المنكر منزلة غيره:

وذلك إذا كان الدليل على ما ينكره واضحاً بحيث لوتأمَّلَهُ لارتدع عن إنكارِهِ .

قال تعالى مخاطباً المشركين: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [البَقَرَة: ١٦٣] فجاء بالخبر غير مؤكَّدٍ، وكان مقتضى الظَّاهِر أن يُلقى إليهم الكلام مؤكَّداً لكِنَّهم نُزِّلوا منزلة غير المنكرين لعدم الاعتدادِ بهذا الإنكار؛ لأنَّه:

وفـــي كـــل شـــيءٍ لـــه آيـــة
تـــدلُّ عـــلـــى أنَّـــه الـــواحِـــدُ

ـ ومن أمثلة ذلِكَ ما قاله الفرزدق دفاعاً عن زين العابدين علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم لمَّا قال هشام بن عبد الملك وقد انصرف الناس عنه إليه: مَنْ هذا؟ وكأنَّه لا يعرِفه، وذلك لينقص من قدره، فأجابه الفرزدق:

هـذا الـذي تَـعْـرِفُ الـبـطـحـاءُ وَطْـأَتَـه
والـبـيـتُ يـعـرفـه والـحِـلُّ والـحَـرَمُ

هـذا ابـن فـاطـمـة إن كـنـت جـاهِـلـه
بِـجَـدِّهِ أنـبـيـاء الله قـد خُـتِـمـوا

ج ـ تنزيل غير المنكر منزلة المنكر: وذلك إذا ظهر عليه شيء من أمارات الإنكار.

مثاله قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥]. فلا أحد ينكر الموت، لكنَّ الآية أُكِّدت بإنَّ واللام واسمية الجملة، وذلك لأنَّ غفلة النَّاسِ وإعراضَهم عن العمل الصَّالِحِ سوَّغ تنزيلهم منزلة المنكرين.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ

رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأعراف: ١٥٣] .

وهنا تنزيلٌ لغير المنكر منزلة المنكر، فمن يتوب لا يتوب إلا لعلمه بأنَّ الله غفور رحيم، لكِن هؤلاء ظهر منهم خوفٌ شديدٌ من عدم قبول الله تعالى لتوبتهم، وخافوا أن لا تغفر ذنوبهم؛ لأنَّهم رأوها في جنب الله كبيرة يستحقُّون عليها العقاب، فنُزِّلوا منزلة المنكرين لِشدَّةِ خوفِهم.

ـ ملاحظة أخيرة مهمَّة وهي أنَّ الخبر قد يُؤكَّدُ من المتكلِّم بسبب إحساسِهِ هودون ملاحظة المتلقِّي، والقرآن الكريم فيه الكثير من الآيات يُؤكَّد فيها الخبر بالنظر لحال المتكلِّم ومدى انفعالِه بالخبر، دون النظر في حال المخاطَب، من ذلك قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السَّلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، فقد صاغ عليه السلام الخبر مؤكَّداً بأكثر من مؤكِّد كما أحسَّه وانفعلت به نفسه، دون النظر لاعتبارات خارجيَّة يلحظها عند المخاطب(١).

٢ ـ الإنشاء:

يكون الإنشاء طلبياً، وغير طلبي، فالطلبي كالأمر والنهي

(١) انظر: محاضرات في البلاغة، ص ٤٩ ـ ٥٠ .

والاستفهام، وغيره كالتعجب والقسم.

وإنما يهتم البلاغيون بالإنشاء الطلبي؛ لأنه به يقع التفنن في المعاني، وبالتالي فسندرس أهم أنواع الإنشاء الطلبي تبعاً للبلاغيين.

أ ـ الأمر: هوطلب الفعل على وجه الاستعلاء، وله أربع صيغ: فعل الأمر، والمضارع المقرون بلام الأمر، واسم فعل الأمر، والمصدر النائب عن فعل الأمر.

قال تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨] ، وقال سبحانه: ﴿وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحجّ: ٢٩] ، وقال جل وعز: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المَائدة: ١٠٥] . وقال تباركت أسماؤه: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البَقَرَة: ٨٣] .

والمهم في بحوث البلاغة معرفة المعاني التي يدل عليها الأمر، فصيغ الأمر في الأصل دالة على طلب الفعل من الأعلى إلى الأدنى إلا أن هذه الصيغ تخرج عن معانيها الأصلية إلى معان أخرى تستفاد من سياق الكلام وقرائن الأحوال وأهمها: الدعاء من الأدنى إلى الأعلى، والالتماس من المساوي.

وقد يكون الأمر للإباحة أوالإرشاد أوالتمني أوالتعجيز أوالتهديد

إلى غير ذلك من المعاني.

وسنعرض لبعض النصوص القرآنية لنرى المعاني البلاغية التي خرج إليها الأمر فيها:

• قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ۚ﴾ [المائدة: ٢]، فالأمر بالاصطياد هنا للإباحة؛ لأنه أمر بعد حظر.

• وقال سبحانه: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، الأمر بالتمتع للتهديد بدليل قوله سبحانه: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

• وقال عز وجل: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ [النمل: ١٩]، الأمر هنا للدعاء؛ لأنه من الأدنى إلى الأعلى.

• وقال عز وجل: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البَقَرَة: ٢٣]، الأمر للتعجيز.

• وقال تقدست أسماؤه: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الإسرَاء: ٤٨] خرج الأمر هنا إلى معنى التعجب.

ب ـ النهي: هوطلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء، وله صيغة واحدة هي لا الناهية قبل الفعل المضارع.

وتخرج صيغة النهي عن معناها الأصلي إلى معانٍ بلاغية تشبه معاني الأمر، فقوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البَقَرَة: ٢٨٦] ، دعاء. وقوله تعالى: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المَائدة: ١٠١] ، إرشاد. وقوله جل من قائل: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ [التّحْريم: ٧] ، للتوبيخ، وهكذا...

ج ـ الاستفهام: طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل بأداة كالهمزة وكيف ونحوهما.

ويكون الاستفهام لطلب التصور (أي إدراك المفردات) وطلب التصديق (إدراك النسب).

وطلب التصور هو الأكثر، ولذلك تستعمل فيه جميع أدوات الاستفهام عدا هل. أما الهمزة فتستعمل فيه وفي التصديق.

والمستفهم عنه إما أن يكون مفرداً أو زماناً أو مكاناً أو هيئة أوحالاً . . . .

فقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [يُونس: ٤٨] ، سؤال عن الزمان، وقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البَقَرَة: ٢٤٥] ، سؤال عن المفرد.

هذا عن طلب التصور.

أما طلب التصديق (إدراك وقوع النسبة تامة بين المسند والمسند إليه أوعدم وقوعها) فله أداتان فقط: هل، الهمزة.

وإنما تكون الهمزة لطلب التصديق عند عدم وجود المعادل، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؟ [الزُّمَر: ٩] وقوله: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ﴾؟ [البَقَرَة: ٧٥] .

والجواب عن سؤال التصديق يكون بـ: نعم أولا.

وهناك معان يخرج إليها الاستفهام، يجعله استفهاماً مجازياً يقصد به غير طلب المعرفة (المعنى الحقيقي للاستفهام). وأهم هذه المعاني:

- الأمر: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المَائدة: ٩١] ، أي انتهوا.
- النهي: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ [التّوبَة: ١٣] ، أي لا تخشوهم.
- النفي: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرَّحمٰن: ٦٠] ، أي: ما جزاء الإحسان إلا الإحسان.
- الاستفهام الإنكاري: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ [الأنعَام: ٤٠] ؟ !
- الاستفهام التقريري: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ [الشّرح: ١] ؟ أي قد شرحنا.

• التعجب: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفُرقان: ٧] ؟

• الوعيد: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ [الفَجر: ٦] ؟[١]

ملاحظة: قال أحمد الهاشمي في آخر حديثه عن الاستفهام: إذا عرفت هذا فاعرف أيضاً أنه يستعمل كلٌّ من الأمر والنهي والاستفهام في أغراض أخرى، يُرجَع في إدراكها إلى الذوق الأدبي، ولا يكون استعمالها في غير ما وضعت له، إلا لطريقة أدبية، تجعل لهذا الاستعمال مزية، يترقى بها الكلام في درجات البلاغة[٢].

وقفات للجرجاني في دلائل الإعجاز حول تقديم المسند إليه في الاستفهام المجازي:

إذا قلت أفعلت؟ فبدأت بالفعل كان الشك في الفعل نفسه وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده. وإذا قلت: أأنت فعلت؟ فبدأت بالفاعل كان الشك في الفاعل من هو؟ وكان التردد فيه... يبين ذلك قوله تعالى حكاية عن نمروذ: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾؟ [الأنبيَاء: ٦٢] لا شبهة في أنهم لم يقولوا ذلك له عليه

(١) جواهر البلاغة، صفحة ٧٧ فما بعد.
(٢) المرجع السابق، صفحة ٧٩.

السلام وهم يريدون أن يقر لهم بأن كسر الأصنام قد كان، ولكن أن يقر بأنه منه كان، وكيف؟ وقد أشاوروا له إلى الفعل في قولهم: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٢] ؟ وقال هوعليه السلام في الجواب: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] ، ولوكان التقرير بالفعل لكان الجواب: فعلت، أولم أفعل.

واعلم أن الهمزة في ما ذكرنا تقرير بفعل قد كان، وإنكار له لِمَا كان وتوبيخ لفاعله عليه.

ولها مذهب آخر، وهوأن يكون الإنكار أن يكون الفعل قد كان من أصله. ومثاله قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الإسراء: ٤٠] . وقوله عز وجل: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[الصافات: ١٥٢ـ١٥٣]. فهذا رد على المشركين وتكذيب لهم في قولهم ما يُؤدِّي إلى هذا الجهل العظيم، وإذا قُدِّمَ الاسم في هذا صار الإنكار بالفاعل... وقد يكون المراد إنكار الفعل من أصله، ثم يخرج اللفظ مُخْرَجَه إذا كان الإنكار في الفاعل. مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ﴾ [يُونس: ٥٩] . الإذن راجع إلى قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ﴾ [يونس: ٥٩]. ومعلوم أن المعنى على إنكار أن يكون قد كان من الله تعالى إذن فيما قالوه من غير أن يكون هذا الإذن قد كان من غير الله فأضافوه

إلى الله، إلا أن اللفظ أُخرِج مُخْرَجَه إذا كان الأمر كذلك، بأن يُجعلوا في صورة من غلط فأضاف إلى الله تعالى إذناً كان من غير الله، فإذا حقق عليه ارتدع.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣] ، أخرج اللفظ مخرجه إذا كان قد ثبت تحريم في أحد أشياء ثم أريد معرفة عين المحرم، مع أن المراد إنكار التحريم من أصله، ونفي أن يكون قد حرم شيء مما ذكروا أنه محرم. وذلك أن الكلام وضع على أن يجعل التحريم كأنه قد كان ثم يقال لهم أخبرونا عن هذا التحريم الذي زعمتم، فيم هو؟ أفي هذا أم ذاك أم في الثالث، ليتبين بطلان قولهم، ويظهر مكان الفرية منهم على الله تعالى(١).

تعليق على هذه الوقفات:

عقد الجرجاني ـ رحمه الله ـ فصلاً في دلائل الإعجاز للحديث عن التقديم والتأخير، ونقل عن بعض العلماء قولَهم إنَّ التقديم قد يكون لمعنى، وقد يكون لناحية لفظيَّة لا تتعلَّق بالمعنى، وقد أنكر ـ رحمه الله ـ ذلك مدَّعياً أنَّ التقديم غرضه معنوي دائماً، ذلك (لأنَّ من البعيد أن يكون في جملة النَّظم ما يدلُّ تارةً ولا يدل أخرى. فمتى

(١) دلائل الإعجاز، الجرجاني، صفحة ١١٣ فما بعد.

ثبت في تقديم المفعول مثلاً على الفعل في كثير من الكلام أنَّه قد اختصَّ بفائدة لا تكون تلك الفائدة مع التأخير، فقد وجب أن تكون تلك قضيةً في كلِّ شيء وكل حال)[(١)].ثم راح الشيخ ـ رحمه الله ـ يسرُدُ المواضع التي لا يختلف النَّاس فيها، في الفرق بين التقديم والتأخير، فشرع في الحديث عن ذلك في الاستفهام، وبدأ بالاستفهام الحقيقي (المراد به طلب المعرفة من جاهلها)، ثم انتقل إلى الاستفهام المجازي (السائل عالِم بالإجابة، وإنما يسأل لغرض بلاغي)، فتحدَّث عن تقديم المسند إليه في الاستفهام التقريري، ثم عقَّب ذلك بالحديث عن التقديم في الاستفهام الإنكاري.

فمن الاستفهام التقريري قوله تعالى عن قوم نمروذ ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾؟ [الأنبياء: ٦٢]، فإنَّهم أرادوا أن يقِرَّ بأنَّه هوالفاعل دون غيره، لا بأنَّ الفعل قد حصل.

فلوكان الغرض التقرير بالفعل لكان الجواب فعلت أولم أفعل، ولكنه أجاب بنسبة الفعل إلى كبيرهم نفياً لما طلبوه من نسبة الفعل إليه دون غيره فدل ذلك على أن المراد التقرير بالفاعل دون الفعل.

وهذا يدل على أن تقديم الفاعل في التقرير المراد به التقرير

(١) المرجع السابق، ص ١١٠ .

بالفاعل، ولوقدم الفعل لكان المراد الإقرار بالفعل.

ثم ينتقل الجرجاني إلى الاستفهام الإنكاري ليدلل على أن التقديم في الاستفهام حقيقياً أومجازياً بشتى صوره وأشكاله، يدل على معنى وليس يمكن أن يكون التقديم لأمر لفظي بحت.

ويضرب الأمثلة على ذلك فيبدأ بقوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَنكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ [الإسراء: ٤٠]، وقوله: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الصَّافات: ١٥٣]. فهنا جاء الاستفهام الإنكاري بالهمزة، والفعل بعدها فعل ماض. وقد تقدم الفعل فكان تكذيباً للمشركين في أن يكون الله منحهم الذكور واختص بالإناث. فلما كان الغرض في هذا إنكار الفعل، قدم الفعل على الاسم، ولوكان الغرض إنكار الاسم قُدِّم.

وإنما يوجه الإنكار للاسم (الفاعل مثلاً) لأسباب تقتضي نفي الفعل عنه خاصة كأن يكون عاجزاً عن الفعل، أوأن يكون أعلى شأناً من أن يفعله أوأقل شأناً.

وقد يكون إنكار الفعل عن طريق إنكار الفاعل ليكون أبلغ في الإنكار. وضابط ذلك أن ينحصر الفاعل ـ ومثله المفعول ونحوه ـ في واحد أوأكثر فيؤتى بالفاعل بعد الهمزة ويعطف غيره عليه بأم (إن وجد) فيتوجه الإنكار إلى الاسم المتقدم بحسب الظاهر، لكن لما

انحصر الفعل بالفاعل لزم من إنكار الفاعل إنكار الفعل وذلك باللزوم العقلي. ولا شك أن ذلك أبلغ في نفي الفعل.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ [يُونس: ٥٩] المقصود منه نفي الإذن من أصله؛ لأنه لا إذن في التحليل والتحريم إلا لله فإن نُفي أن يكون الله أذن فقد انتفى الإذن من أصله.

ومن أمثلة تقديم المفعول قوله تعالى: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [الأنعَام: ١٤٣] فالمقصود هنا نفي الفعل ـ وهو التحريم ـ ولكن لم يقدم الفعل عقب الهمزة بل أخرج الكلام في صورة نفي المفعول ليكون أبلغ في نفي الفعل كأنه قيل: لو كان هناك تحريم لكان متعلقاً بواحد من هذه الأمور، ولما لم يكن شيئاً منها محرماً فالتحريم باطل من أساسه. فجرى البيان معهم لإقامة الحجَّة عليهم كأنَّ واحداً من هذه من المحرَّمات، لكن ثبت أنَّه لا شيء منها محرَّم، فبان عِظمُ فريتهم على الله تعالى.

❊ ❊ ❊

ثالثاً ــ الإيجاز والإطناب والمساواة:

المقصود بالمساواة كون الألفاظ بقدر المعاني، أما الإطناب فهو كون الألفاظ أكثر من المعاني لغاية في نفس المتكلم، فسيدنا موسى عليه السلام لما سأله ربه عما في يده ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨] فلو قال هي عصاي وسكت لأدى المعنى بما يساويه من الألفاظ ولكنه أطنب في الكلام، قيل لكي يطيل الحديث مع رب العزة، فأيُّ شرف يفوق شرف الحديث مع الخالق جل وعلا، فحُقَّ له عليه السلام أن يطنب ويسترسل لمكان لذة خطاب الذات العلية.

أما الإيجاز فيعني كون الألفاظ أقل من المعاني، مع وفائها بالغرض. ويقسم إلى قسمين:

• إيجاز حذف: وذلك حين يُحْذَفُ من الكلام ما تدل عليه قرينة مقالية أو سياقية، كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يُوسُف: ٨٢] أي أهل القرية، ويسمى مجازاً بالحذف.

• إيجاز قصر: وذلك إذا كانت الألفاظ بطبيعتها تحمل المعاني الكثيرة، وهذا معنى جوامع الكلم التي أوتيها ﷺ حتى قيل في قوله (إنما الأعمال بالنيات) إنه أخبر عن نصف الدين، أوثلثه. وقد يكون

الكلام يحتمل معاني كثيرة وكلها مرادة للمتكلم، وهذا قد يقل في كلام الناس ويندر، ولكنه سمة الكلام المعجز، انظر إلى قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: ٧١-٧٣] فكلمة المقوين جمع مُقْوٍ، أي نازل في القواء (المكان القفر) أومجتاز بها، وعليه قول النابغة:

يا دار ميَّة بالعلياء فالسند

أَقْوَت وطال عليها سالف الأمد

والمقوين أيضاً من القَوَى (الجوع) ومنه قول حاتم الطائي:

وإني لأختار القَوى طاويَ الحشى

مُحاذرةً من أن يُقالَ لئيمُ

والمقوين أيضاً جمع مُقْوٍ، أي مستمتع كما قال مجاهد رحمه الله. فجمعت الكلمة القرآنية الواحدة جميع فوائد النار، فهي متاع يُحتاج إليه في حالات السفر واجتياز القفار، وكذا يُحتاج لها لتحضير الطعام، ثم كلما تطورت أساليب الحياة كلما كانت صور استمتاع الإنسان بالنار للدفء والجمال وغير ذلك(١).

(١) ينظر: من روائع القرآن، د. البوطي، صفحة ١٤٢ ـ ١٤٣.

بلاغة الإطناب: الإطناب كما تقدم زيادة اللفظ على المعنى لفائدة. أو هو تأدية المعنى بعبارة زائدة عن متعارف أوساط البلغاء لفائدةِ تقويته وتوكيده ونحو ذلك. وذلك كقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ [مريم: ٤]، أي كبرت[1].

ولا يعد الإطناب بليغاً إلا إذا كان مطابقاً لمقتضى حال المخاطب ويدعو إليه موطن الخطاب، ذلك لأن البلاغة ـ كما هو شائع ـ في الإيجاز، ومع ذلك فالإطناب في محله أبلغ من الإيجاز.

ولكن، متى يكون الإطناب مناسباً؟

لا شك أن ضابط ذلك أن يكون هناك فائدة مقصودة منه لا تتأتَّى بالإيجاز، وإلا كان الإطناب تطويلاً أوحشواً، وكلاهما ينافي بلاغة الكلام المتمثلة بمناسبة المقام.

وللإطناب البليغ طرق عدة منها:

- ذكر الخاص بعد العام، كقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القَدر: ٤] والروح هو جبريل، وهو من الملائكة وإنما ذكر مع دخوله في عموم ما قبله تعظيماً لشأنه وتكريماً له.

---

(١) جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، صفحة ١٩٦ ـ١٩٧ .

• ذكر العام بعد الخاص كقوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح: ٢٨].

• الإيضاح بعد الإبهام: كقوله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [الصف: ١٠ـ١١].

وعلى العموم: يستحسن استعمال الإطناب في الصلح، والمدح، والهجاء، والوعظ، ونحوذلك من المواطن.

علم البيان

أولاً ــ التشبيه:

هوالمماثلة بين أمرين اشتركا في صفة أوأكثر بأداة ملحوظة أوملفوظة.

وأركانه ثلاثة:

- طرفا التشبيه: المشبه والمشبه به ولا بد منهما في كل تشبيه.
- الأداة: وتكون اسماً (مثل)،أوفعلاً (يشبه، يحاكي)، أوحرفاً (الكاف).
- وجه الشبه: وهوالصفة المشتركة بين المشبه والمشبه به، والأصل أن يكون أقوى وأظهر في المشبه به منه في المشبه.

* **أنواع التشبيه:**

إذا ذكرت أداة التشبيه سُمِّيَ **مُرْسلاً**، وإن حذفت سُمِّيَ **مؤكَّداً**. فإن ذكر وجه الشبه سُمِّيَ **مفصَّلاً**، وإلا فهو **المُجْمل**. **والتشبيه البليغ** هوالمؤكد المجمل: أي ما حذفت منه الأداة ووجه الشبه كقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النَّمل: ٨٨] .

فالمشبه هنا مرور الجبال والمشبه به مرور السحاب وأداة التشبيه ووجه الشبه محذوفان. وإنما معنى التشبيه هنا أن الجبال ستُرى يوم القيامة وهي تمر محمولة في الهواء كما أن السحاب يسير مدفوعاً بالهواء. ونلاحظ هنا أن المشبه به مفعول مطلق، وذلك شكل من أشكال التشبيه البليغ.

*** صور التشبيه:**

١ ـ التشبيه التمثيلي: هوما كان وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد. كقول المتنبي:

يهزُّ الجيشُ حولَكَ جانِبَيْهِ
كما نَفَضَت جناحَيْها العقابُ

فنلاحظ وجود جانبين لشيء واحد في حالة تحرك وتموج. ومثله قول الشاعر:

كأن سهيلاً والنجوم وراءه
صفوف صلاة قام فيها إمامها

وغالباً ما يكون التشبيه التمثيلي تشبيه صورة متحركة بصورة متحركة أي لقطة فيديوية بنظيرتها.

ومن أمثلة التشبيه التمثيلي في كتاب الله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ

أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ ﴾ [البقرة: ٢٦١].

٢ ـ التشبيه الضمني: وهو ما لا تذكر فيه أركان التشبيه صراحة لكنها تفهم من سياق الكلام.

يقول د. علي سلطاني موضحاً مفهوم التشبيه الضمني: "وربما حذفت الأداة ووجه الشبه. واستتر طرف التشبيه خلف غلالة رقيقة، تظلُّهما ولا تخفيهما، فيكون بذلك إثارة نفس القارئ، وإيقاظ ذوقه ودفع فضوله كي يستشعر اللذة في قليل من البحث عنهما... حتى إذا وجدهما واستقامت له الصورة بجوانبها وإيحاءاتها، استشعر المتعة الفنية وتاقت نفسه لسماع المزيد... من ذلك قول الشاعر:

قد يشيب الفتى وليس عجيباً
أن يُرى النَّوْر في القضيب الرطيب[1]

والبيت هذا من كلام ابن الرومي، والنَّوْرُ هو الزهر الأبيض، والقضيب الرطيب هو الغصن الندي. وفي البيت تشبيه ضمني يلمح من التركيب ولو أراد الشاعر الإفصاح عنه لقال: شيب الفتى يشبه ظهور الزهر الأبيض في الغصن الندي الصغير قبل أوانه.

(١) البلاغة العربية في فنونها صفحة ١٠٩ ـ ١١٠.

٣ ـ التشبيه المقلوب: وهو جعل المشبه مشبهاً به بادعاء أن وجه الشبه فيه أقوى وأظهر، كقول الحِمْيَري:

وبـــدا الـــصـــبـــاح كـــأنَّ غُـــرَّتَـــهُ
وجـه الـخـلـيـفـة حـيـن يُـمْـتَـدَحُ

أي: إن تباشير الصباح تشبه في التلألؤ وجه الخليفة عند سماعه المديح[1] وليس لهذا النوع مثال في كتاب الله عز وجل وذلك لأن المبالغة فيه صنعة شاعر والقرآن يتنزه عن مثل هذا، الذي إن لم يكن كذباً فهو ابن عمه.

*** التشبيه القرآني:**

التشبيه في القرآن على نوعين:

• تشبيه محسوس بمحسوس كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾. وكقوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾ [القَمَر: ٣١] والهشيم الشجر اليابس المتهشم، والمحتظر هوصاحب الحظيرة وما يجمع فيها ييبس بطول الزمان وتطؤه البهائم فيتحطم ويتهشم.

(١) البلاغة الواضحة صفحة ٧٦.

• تشبيه معقول بمحسوس: (توضيح الأمور المعنوية بالصورة الحسية عن طريق التشبيه) كقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ﴾ [إبراهيم: ١٨] .

وربما جاء المشبه به غير محسوس إذا كانت صورته قد توضعت في النفس ورسخت، وكان لها في النفس مثل فعل المحسوس كقوله تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ٦٤ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ٦٥﴾ فقد استقر في نفوس البشر أن رؤوس الشياطين بشعة مكروهة حتى كأن صورة هذه الرؤوس الكريهة محسوسة ترى بالعين، وتلمس باليد، فلما كانت هذه الصورة من القوة إلى هذا الحد ساغ وضعها في موضع التصوير والإيضاح(١).

* * *

(١) ينظر: القرآن ونصوصه، د. عدنان زرزور، صفحة ٢٨٠ فما بعد.

ثانياً ــ الاستعارة:

مصطلح الاستعارة من أقدم المصطلحات الفنية في تاريخ البلاغة العربية فقد روي أن أبا عمروبن العلاء (ت ١٥٤ هـ) قال تعليقاً على بيت لذي الرمة:

أقامت به حتى ذوى العود والتوى
وساق الثريا في مُلاءته الفجرُ

"ألا ترى كيف صيَّر له ملاءة، ولا ملاءة له، وإنما استعار له هذه اللفظة "وقد تناقل هذا المصطلح النقاد والرواة القدماء إلى أن اقتبس الجاحظ (ت ٢٥٥) هذا المصطلح وعرّفه بقوله تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه، ثم عرفه ابن المعتز (ت ٢٩٦)، استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها، من شيء قد عرف بها.[١]

والاستعارة في حقيقتها تشبيهٌ حُذِف أحد طرفيه، وهي من المجاز؛ لأنَّ المجاز يعني ألا تستعمل الكلمة بمعناها الذي وضعت له[٢].

(١) البلاغة العربية في فنونها، د. علي سلطاني، ص ١١٥ .
(٢) يقول الجرجاني رحمه الله في أسرار البلاغة ص ٣٩٨: " أن المجاز أعم من الاستعارة؛ لأن الصحيح من القضية في ذلك أن كل استعارة مجازاً، وليس كل مجاز استعارة .

* نوعا الاستعارة:

١ ـ الاستعارة التصريحية: وهي ما صُرِّحَ فيها بلفظ المشبه به كقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١] شبَّه الكفر بالظلمات، وحذف المشبه وهوالكفر وصرّح بالمشبه به وهوالظلمات، على سبيل الاستعارة التصريحية. كما شبه الإيمان بالنور، وحذف المشبه وهو الإيمان، وصرح بالمشبه به وهو النور على سبيل الاستعارة التصريحية.

٢ ـ الاستعارة المكنية: تشبيهٌ حُذِفَ منه المشبه به، ورُمِزَ له بشيء من لوازمه (صفاته، ما يتعلق به، ما يرتبط به ارتباطاً وثيقاً ـ ما يختص به من الصفات التي تدل عليه).

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسرَاء: ٢٤]

شبّه الذل بالطائر ـ صرّح بالمشبه وهو الذل، وحذف المشبه به وهو الطائر، وبقي شيء من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية.

ونلاحظ أن الاستعارة هنا وقعت في كلمة الذل، وهي اسم جامد، والبلاغيون يسمون الاستعارة الواقعة في الاسم الجامد **استعارة أصلية**.

فلو كان اللفظ الذي وقعت فيه الاستعارة لفظاً مشتقاً فإنها **استعارة تبعية.**

فمن الاستعارة التبعية (وهي استعارة تصريحية) قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، شبه انتهاء الغضب بالسكوت، وهومصدر (اسم جامد) لكنه اشتق منه الفعل سكت ليدل بذلك على انتهاء الغضب، فالاستعارة وقعت في لفظ مشتق (فعل).

وكل استعارة تصريحية تبعية، يمكن أن نعتبرها استعارة مكنية فنقول في قوله تعالى ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

شبه الغضب بالإنسان، وذكر المشبه وهو الغضب، وحذف المشبه به وهو الإنسان، وبقي شيءٌ من لوازمه وهو السكوت على سبيل الاستعارة المكنية.

❊ ❊ ❊

ثالثاً ـ الكناية:

لفظٌ يُرادُ به غير معناه الأصلي، دون أن يمنع من إرادة المعنى الأصلي.

وهي في حقيقتها: التعبير عن المعنى بطريقة تصويرية غير مباشرة، تتناول تصوير أبرز المواقف الدالة على صحة ذلك المعنى.

فعندما يراد بيان مدى قدرة الله تعالى، يقول تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزُّمَر: ٦٧] وهي صورة محسوسة، لإبراز المواقف الدالة على صحة المعنى المراد، فقد بينت بطريقة تصويرية موجزة عظمة المدى الذي بلغته قدرة الله سبحانه، حيث صورت لنا السموات جميعها قد طويت وكأنها منديل في قبضة الله سبحانه[1].

ولها ثلاثة أنواع:

١ ـ كناية عن صفة: ويكون الشيء المراد صفة، فإذا أردنا الكناية عن الندم مثلاً قلنا: فلان يعض على أصابعه قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ [الفُرقان: ٢٧] وقال سبحانه: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ

(١) البلاغة العربية في فنونها، صفحة ١٢٥ .

يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٤٢] .

٢ ـ كناية عن موصوف: وهنا تكون الصفة مذكورة، والمكني عنه هوالموصوف. مثالها قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ [القَمَر: ١٣] كناية عن السفينة.

وقول الشاعر:

الضاربين بكل أبيض مخذم
والطاعنين مجامع الأضغان

(كناية عن القلوب)

٣ ـ كناية عن نسبة: وتكون الصفة في هذه الكناية مذكورة، ومرتبطة بما له صلة بالموصوف. كقول الشاعر:

إنَّ السماحة والمروءة والندى
في قُبَّةٍ ضُرِبَت على ابن الحشرج

وقول الآخر:

إن السماحة والمروءة ضُمَّنا
قبراً بمروعلى الطريق الواضح

فالسماحة والمروءة (صفة)، والقبة أو القبر شيء له صلة بمن

تحت القبة أومن هو في القبر (الموصوف)، والكناية في نسبة السماحة إلى القبر والمقصود صاحبه.

*** الدور الفني للكناية: (غايات الكناية):**

١ ـ إبراز الأمور المعنوية في صور حسية: فالبخل أمر معنوي، والأمور المعنوية فيها الكثير من الغموض، وفيها اختلاف في تفسيرها وتقديرها، فإذا أُبْرِزَت في صورةٍ تتناولها الحواسُّ حيَّةً مؤثِّرة كانت أقرب إلى النفس وأوضح في الذهن وأدق في التحديد، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسرَاء: ٢٩]

٢ ـ تقديم الحقائق مقرونة بأدلتها: فلو قيل فلان كريم، ربما تسرب الشك في الكلام إلى السامع، فتأتي الكناية (كثير الرماد) مقرونة بالدليل على صحة الادعاء.

٣ ـ التعبير عما يكره ويستقبح: كقوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ [النِّساء: ٤٣] والغائط: المكان المطمئن المنخفض، وكانت العرب إذا أرادت قضاء الحاجة قصدت المكان المنخفض، فلم يذكر البيان الإلهي لفظاً يدل على انتقاض الوضوء مما يكره ذكره أو يستقبح، بل كنّى عن ذلك بالمجيء إلى الغائط.

* **نص للجرجاني رحمه الله في جمال الكناية، وأنها عقلية لا تدرك من ذات اللفظ**: [وإذا نظرت إليها ـ الكناية ـ وجدت حقيقتها ومحصول أمرها أنها إثبات لمعنى، أنت تعرف ذلك المعنى من طريق المعقول دون طريق اللفظ. ألا ترى أنك لما نظرت إلى قولهم "هوكثير رماد القدر "وعرفت منه أنهم أرادوا أنه كثير القِرى والضيافة، لم تعرف ذلك من اللفظ، ولكنك عرفته بأن رجعت إلى نفسك فقلت: إنه كلام قد جاء عنهم في المدح ولا معنى للمدح بكثرة الرماد، فليس إلا أنهم أرادوا أن يدلوا بكثرة الرماد على أنه تنصب له القدور الكثيرة، ويطبخ فيها للقرى والضيافة، وذلك لأنه إذا كثر الطبخ في القدور كثر إحراق الحطب تحتها، وإذا كثر إحراق الحطب كثر الرماد لا محالة](١).

رابعاً ـ المجاز المرسل:

المجاز مفعَل، من جاز الشيء يجوز إذا تعداه، وإذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة، وُصِف بأنه مجاز، على معنى أنهم جازوا به موضعه الأصلي(٢).

وقد عرف البلاغيون المجاز بقولهم: اللفظ المستعمل في غير ما

(١) دلائل إعجاز، صفحة ٤٣١ .
(٢) أسرار البلاغة، الجرجاني صفحة ٣٩٥ .

وضع له في اصطلاح التخاطب، لعلاقة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الوضعي(١).

والعلاقة: هي المناسبة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي. فإذا كانت هذه العلاقة هي المشابهة فالمجاز استعارة، وإلا فهوالمجاز المرسل.

*** من علاقات المجاز المرسل:**

١ ـ السببية أوالمسببية: فإذا قلنا رعت الماشية الغيث، فالمعنى رعت النبت الذي سبَّبَهُ الغيث، وإن قلنا: أمطرت السماء نباتاً فالمعنى غيثاً يتسبَّب عنه النبات.

فالعلاقة في الأول السببية وفي الثاني المسببية.

قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ [غافر: ١٣] أي: مطراً يُسبِّب الرزق.

٢ ـ الكلية: وذلك إذا ذكر لفظ الكل وأريد به الجزء كقوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ [البقرة: ١٩] أي أناملهم، والقرينة هنا حالية، وهي استحالة إدخال الأصبع كله في الأذن(٢).

(١) جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، صفحة ٢٥٣ .
(٢) جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، صفحة ٢٥٥ .

يقول د. علي سلطاني: "وحين نقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ [نُوح: ٧] ترتسم في أذهاننا صورة قوم نوح وهم يقابلون دعوته لهم بإدخال أصابعهم في آذانهم.. إنها صورة حسية مثيرة ذات دلالات بعيدة، لكن الذي يبدو نافراً فيها هو إدخال الأصابع في الآذان، وهو أمر غير ممكن عملياً.. عندها يدرك السامع أن استعمال الأصابع جاء على سبيل المجاز وإنما قصد نوح عليه السلام الأنامل، لكنه وجد كلمة الأنامل قليلة جداً على موقف الإعراض المتعنت غير البصير، أراد أن يقول: إنهم لشدة إعراضهم يتمنون أن يسدوا آذانهم حتى لا يسمعوا من دعوة الحق شيئاً، بالأصابع كاملة"(١)

٣ ـ الجزئية: وذلك إذا ذكر الجزء وأريد به الكل، كقوله تعالى ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النِّساء: ٩٢]

٤ ـ العموم: كقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النِّساء: ٥٤] فالمقصود بالناس هنا رسول الله ﷺ، فالناس مجاز مرسل علاقته العموم.

٥ ـ الحالِّيَّة: كقوله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعرَاف: ٣١] ، أي لباسكم لحلول الزينة فيه، فالزينة حالٌّ

(١) البلاغة العربية في فنونها، د. سلطاني، صفحة ١٣٥ .

واللباس محلها.

وكقوله سبحانه: ﴿فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٠٧] أي في جنة الله حيث رحمته سبحانه.

٦ ـ المحلية: كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يُوسُف: ٨٢] أي أهلها الذين يحلون فيها. ومنه قوله أيضاً: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ [العلق: ١٧] أي من يحل في النادي، وقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم﴾ [آل عِمرَان: ١٦٧] أي ألسنتهم؛ لأن القول لا يكون عادة إلا بها، وهي حالّة في الفم، والأفواه محل للألسنة.

٧ ـ التعلق الاشتقاقي: وذلك حين تقام صيغة صرفية مكان أخرى كإطلاق المصدر على اسم المفعول، كما في قوله تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النَّمل: ٨٨]، أي مصنوعه، أو كإطلاق اسم المفعول على اسم الفاعل، كقوله: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسرَاء: ٤٥] أي ساتراً. وهكذا..

علم البديع

أولاً ــ الطباق:

وهوالجمع بين المتضادين.

وفائدته تتمثل في أن التقابل بين الأشياء سمة لكثير من جوانب الحياة كالمذكر والمؤنث والأبيض والأسود والسالب والموجب، فإذا عرض الشيئان المتقابلان حسن في السمع عرضهما. ولذا قال صاحب اليتيمة:

فالوجْهُ مِثْلُ الصُّبْحِ مبيضٌّ
والفَرْعُ مِثْلُ الليلِ مسودُّ

ضِدان لمّا استجمعا حَسُنا
والضِّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ

وهو من الظواهر القرآنية فمن ذلك قوله سبحانه: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ﴾ [الرّعد: ١٦] فطابق بين السموات والأرض وبين النفع والضر ، وبين الأعمى والبصير، والظلمات والنور في آية واحدة.

ويكون الطباق في الأسماء كما هو الشأن في هذه الآية، ويكون في الأفعال كقوله سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [النّجْم: ٤٣] ، وبين الأسماء والأفعال كقوله تعالى: ﴿يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الرُّوم: ٥٠] ، وبين الحروف كقوله تباركت أسماؤه: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٦] ، ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٨] .

والطباق نوعان:

- طباق إيجاب: وهو كالأمثلة المتقدمة.

- طباق سلب: وهو ما اختلف فيه الضدان إيجاباً وسلباً، بأن يأتي الطباق عن طريق لفظين أحدهما مثبت والآخر منفي، أو أحدهما أمر والآخر نهي.

فمن شواهد الإثبات والنفي قوله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [زمر: ٩] وقوله جل وعلا: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفَال: ١٧] .

ومن شواهد الأمر والنهي قوله تقدست صفاته: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسرَاء: ٢٣] .

وهذا في الأفعال، ومن شواهده في الأسماء قوله سبحانه:

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ﴾ [المجادلة: ٢] فهنا أمومة مثبتة وأمومة منفية. وكقوله علا وعز: ﴿وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ﴾ [الرّعد: ٤] ، وقوله علا وجل: ﴿مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ [الحجّ: ٥] ، وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [الحجّ: ٢] .

*** تقسيم الطباق إلى ظاهر وخفي:**

إذا كان التضاد بين الألفاظ والمعاني معاً، كان الطباق ظاهراً، وهولا يتم إلا في التضاد القائم بين المفردات. أما إذا فقد التضاد بين الألفاظ وبقي بين المعاني وحدها كان الطباق خفياً[(١)] .

أي إذا كانت المعاني المتضادة مأخوذة من التراكيب وليس من المفردات يكون التضاد خفياً.

ومِنْ شواهِدِهِ عند الخطيب القزويني قولُهُ تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ [نوح: ٢٥] فليس التضاد في هذه الآية بين أغرق ودخل، لكن بين الغرق الذي يستلزم الماء المشتمل على البرودة غالِباً، والنَّار المشتملة على الحرارة، والحرارة والبرودة متقابلان[(٢)].

---

(١) دراسات في علم البديع، د. أحمد علي، صفحة ٤٩ فما بعد.
(٢) المرجع السابق، صفحة ٤٤ .

ومثل ذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البَقَرَة: ١٧٩]؛ لأنَّ المعنى: القتل أنفى للقتل، فصار القتل سبب الحياة. ومثل ذلك قوله جلَّ وعلا: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ، قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ ومعناه: ربنا يعلم إنَّا لصادقون.

❊ ❊ ❊

ثانياً ـ المقابلة:

المقابلة في حقيقتها: طباق متعدِّدٌ مُتَّحِد، بحيث يؤتى بمعنيين أو أكثر، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب.

مثالها قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢] وقوله: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] وقد وصلت المقابلة في كتاب الله إلى أربعة طباقات وذلك في قوله جل وعلا: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ـ٩].

❊ ❊ ❊

ثالثاً ــ الجناس:

الجناس من المحسنات اللفظية، ويمكن أن نعرِّفَهُ بقولنا: أن تتشابه اللفظتان في الشكل الخارجي وتختلفا في المعنى.

وإنما سر جمالية الجناس أن الأديب يثير المتلقي مرتين؛ الأولى حين يوهمه بأن المعنى في اللفظين واحد، والثانية حين ينبهه للبحث عن المعنى المراد من الكلمة الثانية حين يدرك أن المقصود بها معنى آخر.

والجناس نوعان:

• جناس تام: وهو نادر الوقوع، وقد وقع في القرآن الكريم جلياً في موضع واحد وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾ [الرُّوم: ٥٥] . وربما يكون من ذلك ما يسمى بالمشاكلة كقوله جل من قائل: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ﴾ [البَقَرَة: ١٩٤] فقوله سبحانه فاعتدوا أي دافعوا وردوا على اعتدائه. وإنما سمَّاه سبحانه اعتداء للإشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل.

• جناس ناقص: وذلك بأن يختلف اللفظان في بعض الحروف أوفي ترتيبها في الكلمة كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى

ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [غافر: ٧٥]

فإذا أكثر الشاعر منه كان متكلفاً بعيداً عن البلاغة، وقد يتفق لبعض ذلك من الطرافة ما يُجَمِّله، كقول الشيخ صادق حبنَّكة:

خلِّني يا خلي أخلو بخلي
فخيالي مما خلا الخِلَّ خالي[1]

❊ ❊ ❊

(١) العلامة الشيخ صادق حبنكة الميداني، د. أحمد السعدي، صفحة ٣٩٥.

رابعاً ـ السجع:

وهو: توافق الفاصلتين في الحرف الأخير من فقرات النثر.

ومثاله قوله سبحانه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ، عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾﴾

وقد تميز السجع في كتاب الله عز وجل بسمات خاصة، فمن ذلك أنه قد يكون في السورة كلها لا في آيتين فقط كما هوفي سورة القمر التي تنتهي جميع آياتها بحرف الراء.

وقد تكون الآيتان المسجوعتان متوازنتين في القصر، كقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾﴾.

وهكذا فللسجع القرآني سماته الخاصة كما للإرسال (عكس السجع) في القرآن سمات خاصة. وعليه فكلام الله لا يشبه حتى في مظاهر البديع فيه كلام البشر، فلا مانع من أن نصفه بها؛ لأنه وإن اتفق في اللفظ، فهوفي الحقيقة والمنهج مختلف.

❊ ❊ ❊

خامساً ـ تأكيد المدح بما يشبه الذم:

من أشهر أمثلة هذا النوع قول النابغة:

ولا عَيْبَ فيهم غَيْرَ أنَّ سيوفَهم
بِهِنَّ فُلولٌ من قِراعِ الكتائبِ

وقد جعل بعض العلماء من هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَمَا نَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وقوله: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًاۖ﴾ [مريَم: ٦٢].

وقد أدخل بعض العلماء بهذا الباب: بابَ التعليق بالمحال، حتى سموا هذا النوع من البديع: تأكيد الشيء بما يشبه نقيضه، ليدخل نحوقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ﴾ [النِّساء: ٢٢] على أن المعنى إن أمكن لكم أن تنكحوا ما قد سلف فانكحوه فلا يحل لكم غيره وذلك غير ممكن، والغرض المبالغة في تحريمه.

فالمعنى على هذا التفسير الذي رجحه بعض العلماء كأبي السعود في تفسيره: إن أمكنكم أن تنكحوا من قد مات من زوجات آبائكم فانكحوهن فهذا النوع الوحيد المحلل لكم من أزواج آبائكم. وهذا من باب التعليق بالمحال[1].

(١) دراسات في البديع، صفحة ٢٥٢ ـ ٢٥٣ . وانظر تفسير الآية في الكشّاف للزمخشري.

سادساً ـ التورية:

التورية من أشهر المُحسِّنات المعنوية، والبلاغيون يعرفونّها بقولهم: أن يذكر المتكلم لفظة تحمل معنيين أحدهما قريب واضح ليس مقصوداً والثاني بعيد هو المقصود.

ومن أمثلته قول أبي بكر عن رسول الله ﷺ وقد سُئلَ عنه، فخاف عليه إن هو عَرَّفَ به، فقال: هادٍ يهديني الطريق.

وقد جعل بعضهم من ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعَام: ٦٠] أراد بقوله جرحتم معناه البعيد وهوارتكاب الذنوب[١].

ومِنْ طُرَفِ التورية قول الصفدي واصفاً كتاباً بالياً لديه:

إذا عاينت كتبي الجديدة حاله

يقولون لا تهلك أسى وتَجَلَّدِ

فالتورية في قوله تجلد، ومعناها القريب تصبَّر، وهو غير مقصود، والمعنى البعيد المراد هو أن يكتسي جِلْداً[٢].

(١) جواهر البلاغة، صفحة ٣١١.

(٢) البلاغة العربية في فنونها صفحة ٣٠.

ويُلْحَق بهذا الباب استعمال بعض العلماء لمصطلحات العلوم ضمن حديثهم في سياق أدبي كغزل ونحوه، ومن أشهر ذلك: قصيدة "غرامي صحيح "التي ذكرت أنواع الحديث في سياق غزلي جميل، ومطلعها:

غرامي صحيح والهوى فيك معضل
ودمعي وحزني مرسل ومسلسل

ومن جميل ذلك قول الشيخ صادق حبنَّكة:

ما أطْوَلَ الليلَ والأفْكارُ ناصِبَةٌ
لم يرْفَعِ الجزْمُ بالهِجْرانِ رجْواها
يذكِّرُ النَّفْسَ بالماضي مضارِعُهُ
مِنَ الهُمومِ فَتَنسى أمْرَ شكْواها
لا تحقِرْنْ نِسْبَةَ التمييزِ في دَنِفٍ
وحالُهُ صِفَةُ التَّنْكِيرِ فَحْواها
جرَّت صروفُ الليالي نحْوَهُ عِلَلاً
لا يستطيعُ لفيفٌ حَمْلَ بَلْواها
أمَا تعدَّت عليهِ وهْيَ لازِمَةٌ
فكيْفَ يَسْمَعُ قاضي الحُبِّ دَعْواها

هـل عـادَ مُـسْـتَـتِـراً مِـنْـهُ الـضَّـمـيـرُ إذا
يُـمْـسي عـلـى صِـلَـةِ الـموصـولِ أوَّاهـا
يَــضِــلُّ عــائــدُهُ لــولا تــأوُّهُــهُ
مِـمَّـا سَـلْـتْـهُ الـتـي مـا رامَ سَـلْـواهـا(١)

(١) العلامة الشيخ صادق حبنكة الميداني، د. أحمد السعدي صفحة ٤٥٤ ـ ٤٥٥ .

الفهرس

بحمد الله تعالى